

قراءات

كتب بالعربية

الحركة الوطنية الفلسطينية:

من النضال المسلح إلى دولة منزوعة السلاح

صقر أبو فخر

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003.

233 صفحة.

يثير كتاب صقر أبو فخر، "الحركة الوطنية الفلسطينية: من النضال المسلح إلى دولة منزوعة السلاح"، واقع الكتابة التاريخية والسياسية في الساحة الفلسطينية.

فمما يلفت الانتباه أن المكتبة العربية، بصورة عامة، تكاد تفتقر إلى الكتابات الجادة التي ترصد نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة، والتي تعالج قضاياها وإشكالات تطورها، في مقابل غزارة الكتابات التي تتعلق بتاريخ الفلسطينيين قبل النكبة، أو تلك التي تتعلق بتاريخ الحركة الصهيونية وأبعادها.

وإذا استثنينا الكتب الفلسطينية الموضوعية لرصد الأحداث الجارية، أو لشؤون الدعاية السياسية، وهي كثيرة، نلاحظ أن حاضراً الفلسطينيين، على أهميته، يكاد يكون الغائب الأكبر في هذه الكتابات، فكيف إذا تعلق الأمر بقضايا المستقبل؟! ولعل التجربة التفاوضية وحدها، بين التجارب الفلسطينية السياسية والتنظيمية والعسكرية، حظيت إلى حد ما بحيز معقول من الاهتمام في الكتابات السياسية.

على العموم، لا يمكن تفسير التقصير في كتابة تاريخ الفلسطينيين المعاصر، ومعالجة قضاياهم السياسية، فقط، بمحدودية الاشتغال في حقل التاريخ والتفكير وغياب الحياة السياسية الطبيعية وضعف العلاقات الديمقراطية. فإضافة إلى هذه الأسباب ثمة أسباب خاصة تفسر ذلك، يتمثل أهمها في:

(1) دور المداخلات العربية في نشوء الفصائل الفلسطينية والتحكم في اتجاهاتها، بما في ذلك من التباسات وإشكاليات، الأمر الذي يحول دون تقديم شهادة تاريخية موضوعية؛ (2) طغيان الطابع "العسكري" على بنى الفصائل الفلسطينية وأنشطتها، يضاف إلى ذلك غياب مراكز الدراسات التي تضع هذه القضايا على رأس سلم اهتماماتها؛ (3) تدني الاهتمام بالإشكاليات المنبثقة من القضايا التي يعمل عليها التفكير السياسي الفلسطيني، في مقابل التركيز على البديهيات والشعارات. ولا شك في

أن طبيعة القضايا الفلسطينية، بأبعادها التاريخية والوجدانية، جعلت أية محاولة لإثارة أسئلة غير معهودة تبدو كأنها محاولة لتجاوز "المحرمات" والتعدي على "الإجماع". وهذا الوضع صرف كثيرين من المشتغلين في حقل التفكير السياسي عن الدخول في "مغامرة" كهذه؛ وهو ما فاقم سطحية التفكير السياسي في الساحة الفلسطينية؛ (4) تكلّس الساحة الفلسطينية، بقياداتها وبنائها ووسائل عملها وخطاباتها، عند نقطة انطلاقها في أواسط الستينات. وعليه، فإن غياب التفكير النقدي، وضعف الحراك السياسي في هذه الساحة، وتمترس الصف القيادي الأول فيها بمواقعه القيادية، طوال أربعة عقود؛ كل هذا أدى إلى احتكار الرواية التاريخية الفلسطينية المعاصرة، بإيجابياتها وسلبياتها، وبإنجازاتها وإخفاقاتها، كما حد من إمكان نشوء رواية تاريخية جديدة.

وفي تقديري، كان لا بد من هذا المدخل إلى مناقشة الكتاب الذي وضعه أبو فخر، لتبني أهمية العمل الذي قدمه، وللكشف عن المعوقات الموضوعية التي تحول دون تمكّن الكاتب من الوصول بمغامرته (التأريخية) أو بجرأته (السياسية والفكرية) إلى نهاياتها المنطقية، وذلك لإيفاء الكاتب حق جهده واجتهاده، ولتجنيبه تبعات ما لا يتحمل مسؤوليته. على ذلك، فإن هذه المناقشة ستتركز على نقد الشغل المبذول في الكتاب، من دون أن تذهب بعيداً، إلى حد تبدو فيه أنها تطالب الكاتب بكتابة الكتاب الذي نريد، أو الذي نتخيل.

وعودة إلى الكتاب، فمن حيث المنهج يمكن اعتبار كتاب أبو فخر بمثابة كتابين في كتاب، أو قسمين في كتاب.

القسم الأول، تضمن عرضاً لتطورات القضية الفلسطينية، ولظروف انطلاقة الحركة الوطنية المعاصرة، بالإضافة إلى مناقشة كثير من القضايا والأسئلة التي طرحتها تعقيدات الصراع ضد الصهيونية.

أما القسم الثاني، فتضمن محاولة في التأريخ لمسيرة فصائل العمل الوطني الفلسطيني، وتوثيقاً للمحطات الرئيسية في تطور القضية الفلسطينية.

في التقديم يتحدث الكاتب عن نشوء فكرة الدولة الفلسطينية وإشكالياتها، ويلاحظ أن اتفاق أوسلو أتاح قيام مؤسسات شبه دولية، من دون أن يأتي ذلك نتيجة تطور تاريخي متدرج، وإنما من فوق، وباتفاق دولي. وفي رأيه: إن إنتاج دولة كهذه سيفقدتها مقومات التواصل والسيادة والبقاء، ولن يحل قضايا القدس واللاجئين. لذلك فهو يرى أن الانتفاضة جاءت لكسر هذه المعادلة المجحفة.

في الفصل الثاني المخصص للبحث في بدايات الكفاح المسلح وظهور المنظمات، ثمة عرض لتاريخ النكبة وانعكاساتها المتمثلة في انهيار المجتمع الفلسطيني وتفكك بنائه السياسية والاقتصادية، وانخراط الفلسطينيين في الأحزاب القومية أو الإسلامية.

ويشير الكاتب إلى خيبة أمل الفلسطينيين من هذه الأحزاب، الأمر الذي جعلهم يشعرون في إنشاء حركاتهم الخاصة من أجل تحرير فلسطين.

وثمة في هذا الفصل عرض موجز لتاريخ التنظيمات الفلسطينية مثل "فتح"، والجهات الشعبية والديمقراطية والقيادة العامة وغيرها. ويلفت الكاتب الانتباه إلى أن جميع المنظمات الفلسطينية تحمل اسم جبهة، باستثناء "فتح"، ومع ذلك يرى أن "فتح"، التي يعتبرها التنظيم الأساسي، هي الوحيدة التي يمكن اعتبارها جبهة.

في الفصل الثالث، المتعلق بدراسة الصهيونية وإسرائيل، ركز أبو فخر على نقد بعض الأفكار الشائعة، فميز بين كراهية اليهود في أوروبا، لأسباب دينية، وبين اللاسامية التي نشأت أواخر القرن التاسع عشر، لأسباب اقتصادية واجتماعية، رابطاً بين نشوء اللاسامية والصهيونية. أما فكرة التوسع الجغرافي فهي، في رأي الكاتب، لم تعد من ثوابت إسرائيل، بسبب محدودية قدرتها على استيعاب السكان، وعنده فإن فكرة التوسع الجغرافي تقادمت لمصلحة السيطرة الاقتصادية. وينفي الكاتب إمكان سيطرة إسرائيل اقتصادياً على العالم العربي؛ فإسرائيل ليست مشروعاً اقتصادياً رابحاً، ولأن ذلك غير قابل للتحقق بحكم حجم الاقتصاد العربي.

ويعتبر أبو فخر، في سجالاته النقدية، على "العقل" العربي المسكون بالأوهام والخرافات، ضارباً أمثلة في ذلك، من نوع: تهمة الدم (فطير صهيون)، ومقولة "حدودك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل"، وبروتوكولات حكماء صهيون، وأسطورة المؤامرة اليهودية والعبرية اليهودية واللوبي اليهودي.

وميز الكاتب في هذا الفصل بين العنف والإرهاب، عارضاً الإرهاب الصهيوني قبيل قيام دولة إسرائيل وبعدها، ومركزاً على مجزرة صبرا وشاتيلا. وقد اختتم هذا الفصل بجدول تضمن أبرز المجازر التي ارتكبتها الحركة الصهيونية وإسرائيل.

أما الفصل الرابع، والمفترض أنه بحث في الإسلام السياسي وفلسطين، فقد سلط الكاتب الأضواء فيه على جوانب من تطور الحركة الإسلامية المتمثلة في حركة "حماس"، التي يعتبرها امتداداً لحركة الإخوان المسلمين. وفي رأيه فإن هذه الحركة كانت تركز على الجهاد الأكبر أو المرحلة "المكية"، أي على الدعوة إلى إقامة المجتمع الإسلامي الصحيح وإصلاح الفرد كشرطين للجهاد ضد الاحتلال، الذي كانت تعتبره الجهاد الأصغر. ويتساءل أبو فخر، في معرض نقده، عن معنى معاداة الحركة الإسلامية للنظام الناصري في مصر، ومهاودتها لأنظمة أخرى في المنطقة. أما نهوض "حماس" إلى مواجهة الاحتلال، فيفسره الكاتب بتداعيات الانتفاضة الأولى، والخوف من العزلة عن الشعب، وبروز حركة الجهاد الإسلامي، التي دمج سيرتها في السيرة الشخصية لمؤسسها فتحي الشقاقي.

واللافت أن هذا القسم لم يقتصر على البحث في نشوء التيار الإسلامي، إذ تضمن

موضوعات مثل: تاريخ القضية الفلسطينية، والميثاق الوطني، والدستور الفلسطيني ودين الدولة، ومحاولة الإجابة عن سؤال هل هزيمة إسرائيل ممكنة؟

وفي نقاش الكاتب لدستور الدولة الفلسطينية المفترضة، جاء حديثه جريئاً: فهو يرى أن الدولة لا دين لها، بعكس الجماعات والأفراد، وأن فلسطين ليست وقفاً على المسلمين، ولو كانوا الأكثرية، كونها للمسيحيين أيضاً وبالتساوي، مع أنهم أقلية. ففلسطين لديه هي بلد المسيح والمسيحية، أيضاً. كما أن النص على دين الدولة مخالف للعصر وللتاريخ المعاصر للنضال الفلسطيني، مشدداً على إقامة دولة فلسطين الديمقراطية العلمانية باعتبارها النقيض للدولة الدينية اليهودية.

أمّا السؤال عن إمكان هزيمة إسرائيل، فيشدد الكاتب على التمييز بين هزيمة المشروع الصهيوني، مع بقاء إسرائيل بصيغة جديدة، وبين دحر هذا الكيان وتدمير مؤسساته. وهو يرى إمكان هزيمة إسرائيل عن طريق اقتران ذلك بهزيمة المشروع الإمبريالي في المنطقة، في ظل استمرار حال الصراع والصمود والممانعة. وفي رأيه: إن إسرائيل أخفقت في مجالات التوسع الجغرافي، وفي جلب يهود العالم إليها، وتخلت عن بعض ثوابتها. وهنا يشير أبو فخر إلى أن عوامل قوة إسرائيل لا تعود فقط إلى احتكارها السلاح النووي؛ فهي تستفيد من إشغال العرب بمشكلاتهم، وغرقهم بخلافاتهم، واعتماديتهم على الغرب. ولذلك فهو يطالب العرب بعدة صمود مختلفة، وبتفكير جديد يتأسس على الانخراط في العصر وعدم الخوف من العولمة، وفسح المجال لنهوض المجتمع المدني وتأسيس الحياة الديمقراطية.

يعرض الفصل الخامس لأهم وثائق الكفاح المسلح، بحسب الكاتب، من مثل: وعد بلفور؛ إعلان قيام منظمة التحرير، بيان قوات العاصفة الأول، بيان شباب منظمة الثأر الأول.

أمّا الفصل السادس فتضمن محاولة لتأريخ الوقائع الفلسطينية خلال 120 عاماً (1882 - 2002)؛ وهي محاولة قيمة وتحتاج إلى مزيد من الإغناء.

وجدير بالذكر أن الكتاب تضمن ملحفاً خاصاً بصور فوتوغرافية كانت بمثابة عرض لمسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة خلال العقود الماضية.

وهكذا فنحن إزاء كتاب يحاول أن يسجل تاريخ الفصائل الفلسطينية، ويبحث في بعض المعضلات والإشكاليات التي تواجه السياسة الفلسطينية. والمشكلة أن هذه الفصائل لم تقم بأية محاولة لكتابة مسيرتها. فمثلاً، لا يُعرف إلا الشيء اليسير عن انطلاقة "فتح"، وهو ما باحت به قريحة بعض قادتها، وليس ثمة إجماع على كيفية نشوء هذه الحركة، والظروف التي جمعت قادتها الأوائل، وكيفية صوغ هيكلتها وشكل عملها، وتأثير الأنظمة العربية في نشوئها ونموها.

وعلى أي حال فإن محاولة أبو فخر التاريخية، وهي تحسب له، كان يمكن إغناؤها بالاستجابة لتحديات البحث والتقصي واستنطاق الفاعلين، وهي مجالات مشهود للكاتب فيها.

كما فات هذه المحاولة إثارة بعض القضايا، مثل علاقة عدد من الفصائل الفلسطينية بهذا النظام أو ذاك ("فتح" والسعودية مثلاً)، وكذلك لم تناقش انعكاس هيمنة "فتح" على منظمة التحرير (1969)، وهي محطة مهمة في التاريخ الفلسطيني، لما لها من انعكاسات على "فتح" والمنظمة والساحة الفلسطينية. ولعل الأمر ذاته ينطبق على هيمنة "فتح" على السلطة الفلسطينية. وبالنسبة إلى الجبهة الشعبية فقد كان حري بالكاتب البحث في انعكاس تحول الحركة (القوميين العرب) إلى حزب ماركسي - لينيني للطبقة العاملة، وتأثير ذلك في الجبهة وفي دورها ومكانتها في الساحة الفلسطينية؛ إضافة إلى ملاحظة سلوك هذه الجبهة المعارض، وتعمدها الانسحاب بين الفترة والأخرى من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. والأمر ذاته بالنسبة إلى القفز عن دور الجبهة الديمقراطية في صوغ البرنامج المرهلي وترويجه، مع الأخذ في الاعتبار دور "فتح" في هذا الاتجاه، باعتبار ذلك نقلة مهمة في الفكر السياسي الفلسطيني.

أمّا المواد المتعلقة بالرأي فهي، على الأرجح، بحاجة إلى مراجعة كي تستوعب المستجدات. فمثلاً، مادة الإرهاب الصهيوني والعنف جاءت عامة، وكان يمكن توسيعها بالحديث عن مخاطر ربط المقاومة والانتفاضة بالإرهاب.

وبالنسبة إلى محاولته الجريئة لتفنيد بعض الأوهام والأساطير، كان يمكن التوسع فيها بالحديث عن أساطير أخرى رائجة، مثل: بيوع الأراضي، وقصة الجيوش العربية التي دخلت فلسطين لمنع قيام دولة إسرائيل، و"كرم" الضيافة العربي للاجئين، بالإضافة إلى مسؤولية النظام العربي الرسمي عن هجرة يهود الدول العربية إلى إسرائيل بعد قيامها، وممانعته قيام كيان فلسطيني بعد النكبة، ولا سيما أن للكاتب مساهمات ومساجلات جريئة في هذه الموضوعات؛ على غرار مساهماته بشأن الدولة الفلسطينية وحق العودة، وإشكالية العمليات الاستشهادية في الانتفاضة، والسلاح الفلسطيني في المخيمات. ولا أدري لم لم يقم بإغناء كتابه بها، على الرغم من أنها تنسجم مع شكل الكتاب الذي بين أيدينا.

وبصورة خاصة، فما يمكن أخذه على المؤلف أنه لم يوضح مقاصده من طرح هذا الكتاب، ولا لماذا أراد بالشكل الذي ظهر فيه، إذ خلا التقديم، الذي كان بمثابة مادة عن إشكالية الدولة الفلسطينية، من كل ذلك.

يمكن أيضاً ملاحظة أن ثمة اضطراباً في عرض موضوعات الكتاب. فالتقديم كان يمثل موضوعاً بذاته (الدولة الفلسطينية). وجاءت المادة الأولى في الفصل الرابع

الخاص بالحديث عن الإسلام السياسي، تحت عنوان "القضية الفلسطينية: التاريخ المعاصر...."، تكررًا لمادة البند الأول في الفصل الثاني، التي وردت تحت عنوان "غداة النكبة"، وكان يمكن دمج المادتين. واللافت أن الفصل الرابع ضم كثيرًا من المواد التي لا علاقة لها بموضوع الإسلام السياسي.

حتى الفصل الخامس، المفترض أنه مخصص لوثائق الكفاح المسلح، جاء عاماً. لذا كان يمكن للمؤلف أن يضيف وثائق مثل: نص إعلان قيام دولة إسرائيل، والقرارين 181 و194 الخاصين بتقسيم فلسطين وحق العودة، والقرار 273 الخاص باعتراف الأمم المتحدة المشروط بدولة إسرائيل، ومقررات مؤتمر أريحا وغزة، واتفاق أوسلو، و"خريطة الطريق".

وفي الفصل السادس بدا أن هناك نقصاً في إيراد بعض التواريخ المهمة. فمثلاً في الفترة 2000 - 2002، يمكن إيراد عودة الليكود إلى السلطة في شباط/فبراير 2001، وإصدار مجلس الأمن للقرار 1397 الخاص بحق الفلسطينيين في إنشاء دولة لهم (أذار/مارس 2002)، وخطاب الرئيس بوش المتعلق بإقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل (حزيران/يونيو 2002)، واغتيال صلاح شحادة القيادي في "حماس" (تموز/يوليو 2002).

أخيراً ثمة أخطاء لا بد من تصحيحها. فقد ورد مثلاً: أن حزب الدفاع الوطني هو أول حزب حديث في فلسطين (ص 117)، والصحيح أن ثمة أحزاباً قبله، لعل أهمها حزب الاستقلال (سنة 1932)؛ وأن كمال ناصر وعبد المحسن أبو ميزر انضموا إلى "فتح" (ص 25)، وهذا غير صحيح، ولعل المقصود، بالثاني، محمد أبو ميزر (أبو حاتم)؛ وأن داود تلحمي من مؤسسي الجبهة الديمقراطية (ص 49)، والصحيح أنه التحق بالجبهة أواسط السبعينات؛ وأن مجموعة حسن الصباريني (أبو حلمي) اندثرت (ص 51)، والواقع أنها عادت فانضمت إلى "فتح"؛ وأن فايز قنديل (الكاتب) قيادي في الصاعقة، والصحيح أنه سامي قنديل (ص 56).

في المحصلة، يمكن القول إن الكاتب بذل جهداً على غاية الأهمية في البحث في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية والأوضاع التي أحاطت بها، وفي طرح الموضوعات والأسئلة التي ما زالت تلح على الفكر السياسي الفلسطيني للتحريض على إيجاد إجابات عنها صحيحة وملائمة.

ولا شك في أن أبو فخر استند في كل ذلك إلى خبرته الشخصية ورؤيته النقدية، وإلى ثقافته الواسعة والمتعددة، كما استند إلى مراجعة كثير من المصادر والوثائق الموجودة في أرشيفه الخاص وفي المكتبات.

يبقى أن هذا الكتاب هو بمثابة مساهمة في البحث في شؤون الساحة الفلسطينية، وهي مساهمة بحاجة إلى المزيد للبناء عليها وإغنائها، من أجل تلبية حاجة المكتبة

الفلسطينية، وإيفاء الحاضر الفلسطيني حقه، والإجابة عن التساؤلات التي لا تفتأ تتزايد وتتعدد يوماً بعد يوم.

ماجد كيالي

كاتب فلسطيني مقيم بدمشق

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>